

٤٨ - سورة الفتح

مدنية وآياتها تسع وعشرون

روى الإمام أحمد عن معاوية بن قرة قال: سمعت عبد الله بن مغفل يقول: قرأ رسول الله ﷺ الفتح في مسيره (سورة الفتح) على راحلته، فرجع فيها، قال معاوية: لولا أنني أكره أن يجتمع الناس علينا لحكيت قراءته^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِيُغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُذْهِبَ عَنْكَ وَرَثَتِكَ وَيُزِيلَ الْعُزْلَ عَنْكَ ﴿٢﴾ إِنَّ فَتْحَنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿٣﴾﴾

نزلت هذه السورة الكريمة لما رجع رسول الله ﷺ من الحديبية، في ذي القعدة من سنة ست من الهجرة، حين صده المشركون عن الوصول إلى المسجد الحرام، وحالوا بينه وبين العمرة، ثم مالوا إلى المصالحة والمهادنة، وأن يرجع عامه هذا ثم يأتي من قابل، فأجابهم إلى ذلك على كره من جماعة من الصحابة، منهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فلما نحر هديه حيث أحصر ورجع، أنزل الله عز وجل هذه السورة، وجعل ذلك الصلح فتحاً باعتبار ما فيه من المصلحة، وما آل الأمر إليه، كما روى ابن مسعود رضي الله عنه وغيره، أنه قال: إنكم تعدون الفتح (فتح مكة) ونحن نعد الفتح صلح الحديبية، وروى البخاري عن البراء رضي الله عنه قال: تعدون أنتم الفتح فتح مكة، وقد كان فتح مكة فتحاً، ونحن نعد الفتح بيعة الرضوان يوم الحديبية، كنا مع رسول الله ﷺ أربع عشرة مائة والحديبية بشر فنزحناها، فلم نترك فيها قطرة، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فأتاها فجلس على شفيرها، ثم دعا بإناء من ماء، فتوضأ ثم تمضمض ودعا ثم صبه فيها، فتركناها غير بعيد، ثم إنها أصدرتنا ما شئنا نحن وركائبنا^(٢)، وروى الإمام أحمد عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: كنا مع رسول الله ﷺ في سفر قال: فسألته عن شيء ثلاث مرات فلم يرد عليّ، قال: فقلت في نفسي ثكلتك أمك يا ابن الخطاب، ألححت، كررت على رسول الله ﷺ ثلاث مرات فلم يرد عليك! قال: فركبت راحلتي فحركت بعيري، فتقدمت مخافة أن يكون نزل في شيء، قال: فإذا أنا بمناد: يا عمر، قال: فرجعت وأنا أظن أنه نزل في شيء، قال: فقال النبي ﷺ: «نزل عليّ البارحة سورة هي أحب إليّ من الدنيا وما فيها: ﴿إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً * ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر﴾»^(٣). وعن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: نزلت على النبي ﷺ: «ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر» مرجعه من الحديبية، قال النبي ﷺ: «لقد أنزلت عليّ الليلة آية أحب إليّ مما على الأرض»، ثم قرأها عليهم النبي ﷺ فقالوا: هنيئاً مريئاً يا نبي الله، بين الله عز وجل ما يفعل بك، فسادا يفعل بنا؟ فنزلت عليه ﷺ: «ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار» حتى بلغ: «فوزاً عظيماً»^(٤). وروى الإمام

(١) أخرجه الإمام أحمد.

(٢) أخرجه أحمد ورواه البخاري والترمذي والنسائي من طرق.

(٣) أخرجه البخاري ومسلم والإمام أحمد.

أحمد عن المغيرة بن شعبة قال: كان النبي ﷺ يصلي حتى تورمت قدماء، فقيل له: أليس قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال ﷺ: «أفلا أكون عبداً شكوراً؟»^(١)، وروى الإمام أحمد عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ إذا صلى قام حتى تنفطر رجلاه، فقالت له عائشة رضي الله عنها: يا رسول الله أتصنع هذا وقد غفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال ﷺ: «يا عائشة أفلا أكون عبداً شكوراً؟»^(٢).

فقوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ أي بيناً ظاهراً، والمراد به (صلح الحديبية) فإنه حصل بسببه خير جليل، وأمن الناس واجتمع بعضهم ببعض، وتكلم المؤمن مع الكافر، وانتشر العلم النافع والإيمان، وقوله تعالى: ﴿ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر﴾ هذا من خصائصه ﷺ التي لا يشاركه فيها غيره، وليس في حديث صحيح في ثواب الأعمال لغيره غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وهذا فيه تشریف عظيم لرسول الله ﷺ، وهو ﷺ في جميع أموره على الطاعة والبر والاستقامة التي لم ينلها بشر سواه، لا من الأولين ولا من الآخرين، وهو ﷺ أكمل البشر على الإطلاق، وسيدهم في الدنيا والآخرة، ولما كان أطوع خلق الله تعالى وأشدهم تعظيماً لأوامره ونواهيه قال حين بركت به الناقة: «حبسها حابس الفيل»، ثم قال ﷺ: «والذي نفسي بيده لا يسألوني اليوم شيئاً يعظمون به حرمان الله إلا أجبتهم إليها»^(٣) فلما أطاع الله في ذلك وأجاب إلى الصلح قال الله تعالى له: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك أي في الدنيا والآخرة، «ويهديك صراطاً مستقيماً» أي بما يشرعه لك من الشرع العظيم والدين القويم، «وينصرك الله نصراً عزيزاً» أي بسبب خضوعك لأمر الله عز وجل يرفعك الله وينصرك على أعدائك، كما جاء في الحديث الصحيح: «وما زاد الله عبداً بغو إلا عزاً وما تواضع أحد لله عز وجل إلا رفعه الله تعالى»، وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: ما عاقبت أحداً عصى الله تعالى فيك بمثل أن تطيع الله تبارك وتعالى فيه.

﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَرْتَدَّوْا إِيمَانًا مَعَ إِيْمَانِهِمْ وَيَلْعَنُوا جُنُودَ السَّكَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ ﴿١﴾ يُدْخِلُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرُ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٢﴾ وَيُعَذِّبُ الْمُتَّبِعِينَ وَالْمُتَّقِينَ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكِينَ الطَّاغُوتِ بِاللَّهِ عَلَى السَّوَةِ عَلَيْهِمُ السَّوَةُ وَعَظِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٣﴾ وَيَلْعَنُوا جُنُودَ السَّكَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٤﴾

يقول تعالى: ﴿هو الذي أنزل السكينة﴾ أي جعل الطمأنينة، قاله ابن عباس، وعنه: الرحمة، وقال قتادة: الوقار في قلوب المؤمنين، الذين استجابوا لله ولرسوله وانقادوا لحكم الله ورسوله، فلما اطمأن قلوبهم بذلك واستقرت، زادهم إيماناً مع إيمانهم؛ ثم ذكر تعالى أنه لو شاء لانتصر من الكافرين، فقال سبحانه: ﴿ولله جنود السموات والأرض﴾ أي ولو أرسل عليهم ملكاً واحداً لأباد خضراءهم، ولكنه تعالى شرع لعباده المؤمنين الجهاد، لما له في ذلك من الحكمة البالغة، والحجة القاطعة، ولهذا قال جلّت عظمتها: ﴿وكان الله عليماً حكيماً﴾، ثم قال عز وجل: ﴿ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها﴾ أي ماكنين فيها أبداً، «ويكفر عنهم سيئاتهم» أي خطاياهم وذنوبهم، فلا يعاقبهم عليها، بل يغفو ويصفح ويغفر ويستر، «وكان ذلك عند الله فوزاً عظيماً»، كقوله جل وعلا: ﴿فمن زحزح عن النار

(١) أخرجه البخاري ومسلم وبقية الجماعة إلا أبا داود.

(٢) أخرجه مسلم والإمام أحمد.

(٣) أخرجه البخاري وهو جزء من حديث طويل.

فقال: ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله ﷺ، واحتبسته قريش عندها، فبلغ رسول الله ﷺ والمسلمين أن عثمان رضي الله عنه قد قتل. قال ابن إسحاق: فحدثني عبد الله بن أبي بكر أن رسول الله ﷺ قال حين بلغه أن عثمان قد قتل: «لا تبرح حتى نناجز القوم»، ودعا رسول الله ﷺ الناس إلى البيعة فكانت (بيعة الرضوان) تحت الشجرة، فكان الناس يقولون: بايعهم رسول الله ﷺ على الموت. وكان جابر بن عبد الله رضي الله عنهما يقول: إن رسول الله ﷺ لم يبايعهم على الموت ولكن بايعنا على أن لا نفر، فبايع الناس، ولم يتخلف أحد من المسلمين حضرها إلا الجد بن قيس فكان جابر رضي الله عنه يقول: والله لكأنني أنظر إليه لاصقاً بإبط ناقته قد صبأ إليها، يستتر بها من الناس، ثم أتى رسول الله ﷺ أن الذي كان من أمر عثمان رضي الله عنه باطل، قال أنس بن مالك رضي الله عنه: لما أمر رسول الله ﷺ ببيعة الرضوان كان عثمان بن عفان رضي الله عنه رسول رسول الله ﷺ إلى أهل مكة، فبايع الناس، فقال رسول الله ﷺ: «اللهم إن عثمان في حاجة الله تعالى وحاجة رسوله» فضرب بإحدى يديه على الأخرى، فكانت يد رسول الله ﷺ لعثمان رضي الله عنه خيراً من أيديهم لأنفسهم^(١). قال البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: إن الناس كانوا مع رسول الله ﷺ قد تفرقوا في ظلال الشجر، فإذا الناس محدقون بالنبي ﷺ، فقال، يعني عمر رضي الله عنه: يا عبد الله انظر ما شأن الناس قد أحدقوا برسول الله ﷺ، فوجدهم يبايعون، فبايع، ثم رجع إلى عمر رضي الله عنه فخرج فبايع^(٢)، وروى البخاري عن يزيد بن أبي عبيد عن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه قال: بايعت رسول الله ﷺ تحت الشجرة، قال يزيد: قلت يا أبا مسلمة على أي شيء كنتم تبايعون يومئذ؟ قال: على الموت. وثبت في «الصحيحين» عن سعيد بن المسيب قال: «كان أبي ممن بايع رسول الله ﷺ تحت الشجرة قال: فانطلقنا من قابل حاجين، فخفي علينا مكانها»^(٣)، وروى الحميدي عن جابر رضي الله عنه قال: كنا يوم الحديبية ألفاً وأربعمائة، فقال لنا رسول الله ﷺ: «أنتم خير أهل الأرض اليوم» قال جابر رضي الله عنه: لو كنتم أبصر لأريتكم موضع الشجرة^(٤). وروى الإمام أحمد عن جابر رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا يدخل النار أحد ممن بايع تحت الشجرة». ولهذا قال تعالى في الثناء عليهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَيَسْتَوِئِهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلْنَا أَمْوَالَنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِآيَاتِنَاهُمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١١﴾ بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَمْلِكَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَذُكِرَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَّشَرُ طَرَفِ السَّوَةِ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا ﴿١٢﴾ وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾ وَاللَّهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ عَظِيمًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾﴾.

يقول تعالى مخبراً رسوله ﷺ بما يعتذر به المخلفون من الأعراب، الذين اختاروا المقام في أهلهم، وتركوا المسير مع رسول الله ﷺ، وسألوا أن يستغفر لهم الرسول ﷺ لا على سبيل الاعتقاد، بل على وجه التقية والمصانعة، ولهذا قال تعالى: ﴿يقولون بالاستغفار ما ليس في قلوبهم قل فمن يملك لكم من الله شيئاً إن أراد بكم ضراً أو أراد بكم نفعاً﴾ أي لا يقدر أحد أن يرد ما أراه الله فيكم، وهو العليم بسر أترككم وضماتركم،

(١) أخرجه الحافظ البيهقي عن أنس بن مالك.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه.

(٣) أخرجه الشيخان عن سعيد بن المسيب.

(٤) أخرجه البخاري ومسلم من حديث سفيان.

وإن صانتمونا وناقتمونا، ولهذا قال تعالى: ﴿بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾، ثم قال تعالى: ﴿بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لِنَ يَنْقَلِبَ الرَّسُولَ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا﴾ أي اعتقدتم أنهم يقتلون وتستأصل شأفتهم، وتستباعد خضراؤهم ولا يرجع منهم مخبر، ﴿وَوَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾ أي هلكى، قاله ابن عباس ومجاهد، وقال قتادة: فاسدين، ثم قال تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أي من لم يخلص العمل في الظاهر والباطن لله، فإن الله تعالى سيعذبه في السعير، ثم بين تعالى أنه الحاكم المالك المتصرف في أهل السماوات والأرض: ﴿يَغْفِرْ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبْ مَنْ يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ أي لمن تاب إليه وأتاب وخضع لديه.

﴿سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مِثَازٍ لِنَأْخُذُوا ذُرُوعًا وَنَنصُرُكُمْ بِرَيْدِكُمْ أَنْ يَبَدُؤْا كَلِمَ اللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكَ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ فَسَبِّحُوا بِحَمْدِ رَبِّكُمْ وَتَذَكَّرُوا بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (١٥)

يقول تعالى مخبراً عن الأعراب، الذين تخلفوا عن رسول الله ﷺ في عمرة الحديبية، إذ ذهب النبي ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم إلى خيبر يفتحونها، أنهم يسألون أن يخرجوا معهم إلى المغنم، وقد تخلفوا عن وقت محاربة الأعداء ومجالدتهم، فأمر الله تعالى رسوله ﷺ أن لا يأذن لهم في ذلك، معاقبة لهم من جنس ذنبهم، فإن الله تعالى قد وعد أهل الحديبية بمغانم خيبر وحدهم، لا يشاركهم فيها غيرهم من الأعراب المتخلفين، ولهذا قال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ﴾ قال مجاهد وقاتادة: وهو الوعد الذي وعد به أهل الحديبية، واختاره ابن جرير، وقال ابن زيد: هو قوله تعالى: ﴿فَإِنْ رَجَعْتَ إِلَىٰ طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذِنُوا فَمَنْ كُنَّ قُلُوبُهُمْ مُتَمَرِّدِينَ عَلَيَّ فَإِنَّ اللَّهَ فَاسِقٌ﴾ وهذا الذي قاله ابن زيد فيه نظر، لأن هذه الآية التي في براءة نزلت في غزوة تبوك، وهي متأخرة عن عمرة الحديبية، وقال ابن جرير: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ﴾ يعني بتثيبتهم المسلمين عن الجهاد، ﴿قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكَ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ﴾ أي وعد الله أهل الحديبية قبل سؤالكم الخروج معهم، ﴿فَسَبِّحُوا بِحَمْدِ رَبِّكُمْ وَتَذَكَّرُوا بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ أي أن تشرككم في المغنم، ﴿بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي ليس الأمر كما زعموا، ولكن لا فهم لهم.

﴿قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سِتْرَةٌ إِنْ كُنْتُمْ فِي قَوْمٍ أُبُلَاحٍ بَاسٍ شَدِيدٍ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي الْقُبُورِ بَرًّا بِرَبِّكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْكُرُونَ﴾ (١٦) ﴿لَنْ تَتَّبِعُوا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبُكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ (١٧) ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَنفُسِ الْوَهَّاجِ حَرَجٌ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يَجْعَلْ لَهُ جُزْءًا مِمَّا تَحْرَىٰ مِنْ حَيْثُ أَهْرَأْتُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّ بِعَدَابِ اللَّهِ أَلِيمًا﴾ (١٨)

اختلف المفسرون في هؤلاء القوم الذين هم أولو بأس شديد على أقوال، (أحدها): أنهم هوازن، قاله سعيد بن جبيرة وعكرمة، (الثاني): ثقيف، قاله الضحاک، (الثالث): بنو حنيفة، قاله جويبر، وروي مثله عن سعيد وعكرمة، (الرابع): هم أهل فارس، قاله ابن عباس ومجاهد، وقال كعب الأحبار: هم الروم، وعن عطاء والحسن: هم فارس والروم، وعن مجاهد: هم أهل الأوثان، وقال ابن أبي حاتم عن الزهري في قوله تعالى: ﴿سَتَدْعُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَاسٍ شَدِيدٍ﴾ قال: لم يأت أولئك بعد، وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا قوماً صغار العين ذلف الأنوف كأن وجوههم المجان المطرقة» قال سفيان: هم الترك. وقوله تعالى: ﴿تَقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسَلِّمُوا﴾ يعني شرع لكم جهادهم وقتالهم، فلا يزال ذلك مستمراً عليهم ولكم النصر عليهم، ﴿أَوْ يُسَلِّمُوا﴾ فيدخلون في دينكم بلا قتال بل باختيار، ثم قال عز وجل: ﴿فَإِنْ طَطِيعُوا﴾ أي تستجيبوا وتنفروا في الجهاد وتؤدوا الذي عليكم فيه ﴿يُؤْتِكُمْ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِنْ تَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبُكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ يعني زمن الحديبية حيث دعيتم فتخلفتم، ﴿يُعَذِّبُكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾. ثم ذكر تعالى الأعذار في ترك الجهاد فمنها لازم كالعَمَى والعرج المستمر، وعارض كالمريض الذي يطرأ أياماً ثم يزول، فهو في حال مرضه ملحق بذوي الأعذار اللازمة حتى يبرأ، ثم قال تبارك وتعالى مرغياً في الجهاد وطاعة الله

ورسوله: ﴿ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار ومن يتولّٰ أي ينكل عن الجهاد ويقبل على المعاش ﴿يعذبه عذاباً أليماً﴾ في الدنيا بالمذلة، وفي الآخرة بالنار، والله تعالى أعلم.

﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يَبَايَعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾﴾.

يخبر تعالى عن رضاه عن المؤمنين، الذين يبايعوا رسول الله ﷺ تحت الشجرة، وقد تقدم أنهم كانوا ألفاً وأربعمائة، وأن الشجرة كانت سمرة بأرض الحديبية، روى البخاري عن عبد الرحمن رضي الله عنه قال: انطلقت حاجاً فمررت بقوم يصلون، فقلت: ما هذا المسجد؟ قالوا: هذه الشجرة حيث بايع رسول الله ﷺ بيعة الرضوان، فأتيت سعيد بن المسيب فأخبرته، فقال سعيد: حدثني أبي أنه كان فيمن بايع رسول الله ﷺ تحت الشجرة، قال: فلما خرجنا من العام المقبل نسيناها، فلم نقدر عليها، فقال سعيد: إن أصحاب محمد ﷺ لم يعلموها وعلمتموها أنتم، فأنتم أعلم.

وقوله تعالى: ﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ أي من الصدق والوفاء، والسمع والطاعة ﴿فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ﴾ وهي الطمانينة ﴿عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ وهو ما أجرى الله عز وجل على أيديهم من الصلح بينهم وبين أعدائهم، وما حصل بذلك من الخير العام بفتح خبير وفتح مكة، ثم فتح سائر البلاد والأقاليم، وما حصل لهم من العز والنصر والرفعة في الدنيا والآخرة، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾، روى ابن أبي حاتم عن إياس بن سلمة عن أبيه قال: بينما نحن قائلون إذ نادى منادي رسول الله ﷺ: أيها الناس البيعة البيعة، نزل روح القدس، قال: فسرنا إلى رسول الله ﷺ، وهو تحت شجرة سمرة فبايعناه، فذلك قول الله تعالى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يَبَايَعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ قال: فبايع رسول الله ﷺ لعثمان رضي الله عنه بإحدى يديه على الأخرى، فقال الناس: هنيئاً لابن عفان يطوف بالبيت ونحن ههنا، فقال رسول الله ﷺ: «لو مكث كذا وكذا سنة ما طاف حتى أطوف».

﴿وَعَدَّكُمْ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِيحَهُمْ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتُكُونَ مَائِمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَنَ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أَلْدَبَّرْتُمْ لَمْ لَا يَجِدُوكَ وَيَلْأَ لَا يُصِيبُكُمْ ﴿٢٢﴾ سِنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَّتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ بُدِيلاً ﴿٢٣﴾ وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِطَّنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَعِيرًا ﴿٢٤﴾﴾.

قال مجاهد في قوله تعالى: ﴿وَعَدَّكُمْ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا﴾ هي جميع المغانم إلى اليوم ﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ﴾ يعني فتح خيبر، وروى العوفي عن ابن عباس ﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ﴾ يعني صلح الحديبية ﴿وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ﴾ أي لم ينلكم سوء مما كان أعداؤكم أضمره لكم من المحاربة والقتال، وكذلك كف أيدي الناس عنكم الذين خلفتموهم وراء ظهوركم عن عيالكم وحريمكم ﴿وَلِتُكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي يعتبرون بذلك، فإن الله تعالى حافظهم وناصرهم على سائر الأعداء مع قلة عددهم، وليعلموا بصنيع الله هذا بهم أنه العالم بعواقب الأمور، وأن الخيرة فيما يختاره لعباده المؤمنين وإن كرهه في الظاهر، كما قال عز وجل: ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾، ﴿ويهديكم صراطاً مستقيماً﴾ أي بسبب انقيادكم لأمره واتباعكم طاعته وموافقتكم رسوله ﷺ، وقوله تبارك وتعالى: ﴿وأخرى لم تقدروا عليها قد أحاط الله بها وكان الله على كل شيء قديراً﴾ أي وغنيمة أخرى وفتحاً آخر معيناً لم تكونوا تقدرون عليها، قد يسرها الله عليكم وأحاط بها لكم، فإنه تعالى يرزق عباده المتقين من حيث لا يحتسبون، وقد اختلف المفسرون في هذه الغنيمة ما المراد بها؟ فقال ابن عباس: هي خيبر، وقال الضحاک وقتادة: هي مكة، واختاره ابن جرير، وقال الحسن البصري: هي فارس والروم، وقال مجاهد هي كل فتح وغنيمة إلى يوم القيامة، وقوله تعالى: ﴿ولو قاتلكم الذين كفروا لولوا الأديار ثم لا يجدون ولياً ولا نصيراً﴾ يقول عز وجل مبشراً لعباده المؤمنين، بأنه لو ناجزهم

المشركون لنصر الله رسوله وعباده المؤمنين عليهم، ولانهزم جيش الكفر فاراً مدبراً ﴿لا يجدون ولياً ولا نصيراً﴾ لأنهم محاربون لله ولرسوله ولحزبه المؤمنين، ثم قال تبارك وتعالى: ﴿سنة الله التي قد خلت من قبل ولن تجدد لسنة الله تبديلاً﴾ أي هذه سنة الله وعادته في خلقه، ما تقابل الكفر والإيمان في موطن فيصل، إلا نصر الله الإيمان على الكفر، فرفع الحق ووضع الباطل، كما فعل تعالى يوم بدر بأوليائه المؤمنين، نصرهم على أعدائه من المشركين، مع قلة عدد المسلمين وكثرة المشركين، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم وكان الله بما تعملون بصيراً﴾ هذا امتنان من الله تعالى على عباده المؤمنين، حين كف أيدي المشركين عنهم، فلم يصل إليهم منهم سوء، وكف أيدي المؤمنين عن المشركين فلم يقاتلوهم عند المسجد الحرام، بل صان كلاً من الفريقين وأوجد بينهم صلحاً، فيه خيرة للمؤمنين وعاقبة لهم في الدنيا والآخرة، روى الإمام أحمد عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: لما كان يوم الحديبية هبط على رسول الله ﷺ وأصحابه ثمانون رجلاً من أهل مكة بالسلاح، من قبل جبل التنعيم، يريدون غرة رسول الله ﷺ، فدعا عليهم، فأخذوا، قال عفان: فعفا عنهم، ونزلت هذه الآية: ﴿وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم﴾^(١). وقال أحمد أيضاً عن عبد الله بن مغفل المزني رضي الله عنه قال: كنا مع رسول الله ﷺ في أصل الشجرة التي قال الله تعالى في القرآن، وكان يقع من أغصان تلك الشجرة على ظهر رسول الله ﷺ وعلي بن أبي طالب رضي الله عنه وسهيل بن عمرو بين يديه، فقال رسول الله ﷺ لعلي رضي الله عنه: «اكتب بسم الله الرحمن الرحيم» فأخذ سهيل بيده، وقال: ما نعرف الرحمن الرحيم، اكتب في قضيتنا ما نعرف، فقال: «اكتب باسمك اللهم - وكتب - هذا ما صالح عليه محمد رسول الله ﷺ أهل مكة» فأمسك سهيل بن عمرو بيده، وقال: لقد ظلمناك إن كنت رسوله! اكتب في قضيتنا ما نعرف، فقال: «اكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله» فبينما نحن كذلك، إذ خرج علينا ثلاثون شاباً عليهم السلاح، فثاروا في وجوهنا فدعا عليهم رسول الله ﷺ، فأخذ الله بأسماعهم فقمنا إليهم فأخذناهم، فقال رسول الله ﷺ: «هل جئتم في عهد أحد؟ أو هل جعل لكم أحد أماناً؟» فقالوا: لا، فخلى سبيلهم فأنزل الله تعالى: ﴿وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم﴾^(٢) الآية.

وروى ابن إسحاق عن عكرمة مولى ابن عباس رضي الله عنه قال: إن قريشاً بعثوا أربعين رجلاً منهم أو خمسين، وأمروهم أن يطيفوا بعسكر رسول الله ﷺ ليصيبوا من أصحابه أحداً، فأخذوا أخذاً، فأتى بهم رسول الله ﷺ، فعفا عنهم، وخلى سبيلهم، وقد كانوا رموا إلى عسكر رسول الله ﷺ بالحجارة والنبل، قال ابن إسحاق: وفي ذلك أنزل الله تعالى: ﴿وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم﴾ الآية.

﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْمَدِينِ مَعَكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ إِلَيْكُمْ وَلَوْ لَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَّزَعَمْتُهُمْ أَنْ تَطَّوْرَهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُم مَّعْرَةٌ يَغْيِرُ عَلَيْكُمْ فَيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٥٥﴾﴾ إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ لَمِيَّةً حَمِئَةً لِّلْجَنَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ يَكْفُلُهُمْ وَعَلَيْكُمْ ﴿٥٦﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن الكفار من مشركي العرب، من قريش ومن مالا هم على نصرتهم على رسول الله ﷺ: ﴿هم الذين كفروا﴾ أي هم الكفار دون غيرهم ﴿وصدوكم عن المسجد الحرام﴾ أي وأنتم أحق به وأنتم أهله في نفس الأمر ﴿والهدي معكوفاً أن يبلغ محله﴾ أي وصدوا الهدي أن يصل إلى محله،

(١) أخرجه أحمد ورواه مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي.

(٢) أخرجه أحمد والنسائي.

وهذا من بغيتهم وعنادهم، وكان الهدي سبعين بدنة، وقوله عز وجل: ﴿ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات﴾ أي بين أظهرهم ممن يكتم إيمانه ويخفيه منهم، خيفة على أنفسهم من قومهم، لكننا سلطناكم عليهم فقتلتموهم وأبدتم خضراءهم، ولكن بين أفئدتهم من المؤمنين والمؤمنات أقوام لا تعرفونهم حالة القتل، ولهذا قال تعالى: ﴿لم تعلموهم أن تطأوهم فتصيبكم منهم معرفة﴾ أي إثم وغرامة «بغير علم ليدخل الله في رحمته من يشاء» أي يؤخر عقوبتهم ليخلص من بين أظهرهم المؤمنين، وليرجع كثير منهم إلى الإسلام، ثم قال تبارك وتعالى: ﴿لو تزيلوا﴾ أي لو تميز الكفار من المؤمنين الذين بين أظهرهم «لعذبنا الذين كفروا منهم عذاباً أليماً» أي لسلطناكم عليهم فقتلتموهم قتلاً ذريعاً. عن جنيد بن سبيع قال: «قالت رسول الله ﷺ أول النهار كافراً، وقاتلت معه آخر النهار مسلماً، وفيما نزلت: ﴿ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات﴾، قال: كنا تسعة نفر سبعة رجال وامرأتين»^(١). وقال ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿لو تزيلوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذاباً أليماً﴾ يقول: لو تزيل الكفار من المؤمنين لعذبهم الله عذاباً أليماً يقتلهم إياهم، وقوله عز وجل: ﴿إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية حمية الجاهلية﴾ وذلك حين أبوا أن يكتبوا: بسم الله الرحمن الرحيم، وأبوا أن يكتبوا: هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله ﷺ «فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وألزمهم كلمة التقوى» وهي قول: لا إله إلا الله، كما قال ابن جرير عن رسول الله ﷺ يقول: ﴿والزهم كلمة التقوى﴾ قال: «لا إله إلا الله»^(٢)، وقال ابن أبي حاتم عن سعيد بن المسيب إن أبا هريرة رضي الله عنه أخبره أن رسول الله ﷺ قال: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فمن قال: لا إله إلا الله فقد عصم مني ماله ونفسه إلا بحقه وحسابه على الله عز وجل»، وأنزل الله عز وجل في كتابه وذكر قوماً فقال: ﴿إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون﴾، وقال الله جل ثناؤه: ﴿والزهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها﴾ وهي لا إله إلا الله محمد رسول الله، فاستكبروا عنها واستكبر عنها المشركون يوم الحديبية، فكاتبهم رسول الله ﷺ على قضية المدة^(٣)، وقال مجاهد: كلمة التقوى الإخلاص، وقال عطاء: هي لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، وقال علي رضي الله عنه: ﴿والزهم كلمة التقوى﴾ قال: لا إله إلا الله والله أكبر، وقال ابن عباس: ﴿والزهم كلمة التقوى﴾ يقول شهادة أن لا إله إلا الله وهي رأس كل تقوى، وقال سعيد بن جبيرة: ﴿والزهم كلمة التقوى﴾ لا إله إلا الله والجهاد في سبيله، «وكانوا أحق بها وأهلها» كأن المسلمون أحق بها وكانوا أهلها «وكان الله بكل شيء عليماً» أي هو عليهم بمن يستحق الخير ممن يستحق الشر.

(ذكر الأحاديث الواردة في قصة الحديبية وقصة الصلح)

روى الإمام أحمد عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم رضي الله عنهما قالا: خرج رسول الله ﷺ يريد زيارة البيت، لا يريد قتالاً، وساق معه الهدي سبعين بدنة، وكان الناس سبعمئة رجل، فكانت كل بدنة عن عشرة، وخرج رسول الله ﷺ، حتى إذا كان بعسفان، لقيه بشر بن سفيان الكعبي، فقال: يا رسول الله هذه قريش قد سمعت بمسيرك فخرجت معها العوذ المطافيل، قد لبست جلود النمر، يعاهدون الله تعالى أن لا تدخلها عليهم عنوة أبداً، وهذا خالد بن الوليد في خيلهم قد قدموه إلى كراع الغميم، فقال رسول الله ﷺ: «يا ويح قريش قد أكلتهم الحرب، ماذا عليهم لو خلوا بيني وبين سائر الناس؟ فإن أصابوني كان الذي أرادوا، وإن أظهرني الله تعالى دخلوا في الإسلام وهم وافرون، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة، فماذا تظن قريش؟ فوالله لا أزال أجاهدكم على الذي بعثني الله تعالى به حتى يظهرني الله عز وجل

(١) أخرجه الحافظ الطبراني، قال ابن كثير: الصواب عن حبيب بن سباع.

(٢) أخرجه ابن جرير ورواه الترمذي، وقال: حديث غريب.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم، قال ابن كثير: ورواه بهذه الزيادات ابن جرير، والظاهر أنها مدرجة من كلام الزهري.

أو تنفرد هذه السالفة» ثم أمر الناس فسلكوا ذات اليمين بين ظهري الحمض على طريق تخرجه على ثنية المرار والحديبية من أسفل مكة، قال: فسلك بالجيش تلك الطريق، فلما رأت خيل قريش فترة الجيش قد خالفوا عن طريقهم ركضوا راجعين إلى قريش، فخرج رسول الله ﷺ، حتى إذا سلك ثنية المرار بركت ناقته، فقال الناس: خلأت، فقال رسول الله ﷺ: «ما خلأت، وما ذلك لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل عن مكة، والله لا تدعوني قريش اليوم إلى خطة يسألوني فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها» ثم قال ﷺ للناس: «انزلوا» قالوا: يا رسول الله ما بالوادي من ماء ينزل عليه الناس، فأخرج رسول الله ﷺ سهماً من كنانته، فأعطاه رجلاً من أصحابه فنزل في قليب من تلك القلب، ففرزه فيه، فجاش بالماء حتى ضرب الناس عنه بعطن فلما اطمان رسول الله ﷺ إذا بديل بن ورقاء في رجال من خزاعة، فقال لهم كقوله لبشر بن سفيان، فرجعوا إلى قريش، فقالوا: يا معشر قريش إنكم تعجلون على محمد ﷺ، إن محمداً لم يأت لقتال إنما جاء زائراً لهذا البيت معظماً لحقه فاتهموهم^(١).

وروى البخاري رحمه الله في «صحيحه»، عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم يصدق كل واحد منهما حديث صاحبه قالوا: خرج رسول الله ﷺ من الحديبية في بضع عشرة مائة من أصحابه، فلما أتى ذا الحليفة، قلد الهدي وأشعره، وأحرم منها بعمرة، وبعث عيناً من خزاعة وسار حتى إذا كان بغدير الأشطاط أتاه عنه فقال: إن قريشاً قد جمعوا لك جمعوا وقد جمعوا لك الأحابيش، وهم مقاتلوك وصادوك ومانعوك فقال ﷺ: «أشيروا أيها الناس عليّ، أترون أن نميل على عيالهم وذريهم هؤلاء الذين يريدون أن يصدونا عن البيت، أم ترون أن نؤم البيت فمن صدنا عنه قاتلناه؟» فقال أبو بكر رضي الله عنه: يا رسول الله خرجت عامداً لهذا البيت لا تريد قتل أحد ولا حرباً، فتوجه له، فمن صدنا عنه قاتلناه، فقال النبي ﷺ: «فامضوا على اسم الله تعالى»، حتى إذا كانوا ببعض الطريق، قال النبي ﷺ: «إن خالد بن الوليد في خيل لقريش طليعة، فخذوا ذات اليمين» فوالله ما شعر بهم خالد حتى إذا هم بقترة الجيش، فانطلق يركض نذيراً لقريش، وسار النبي ﷺ حتى إذا كان بالثنية التي يهبط عليهم منها بركت به راحته، فقالت الناس: حل حل، فالتحت، فقالوا: خلأت القصواء، خلأت القصواء، فقال النبي ﷺ: «ما خلأت القصواء، وما ذاك لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل»؛ ثم قال ﷺ: «والذي نفسي بيده لا يسألوني خطة يعظمون فيها حرمة الله تعالى إلا أعطيتهم إياها» ثم زجرها، فوثبت، فعدل عنهم، حتى نزل بأقصى الحديبية على ثمد قليل الماء يتبرئ منه الناس تبرضاً فلم يلبث الناس حتى نزحوه، وشبكي إلى رسول الله ﷺ العطش، فانتزع ﷺ من كنانته سهماً، ثم أمرهم أن يجعلوه فيه، فوالله ما زال يجيش لهم بالري حتى صدروا عنه، فبينما هم كذلك إذ جاء (بديل بن ورقاء) الخزاعي في نفر من قومه من خزاعة وكانوا عبية نصح رسول الله ﷺ من أهل تهامة فقال: إنني تركت كعب بن لؤي وعامر بن لؤي نزلوا عدا مياه الحديبية معهم العوذ المطافيل، وهم مقاتلوك وصادوك عن البيت، فقال النبي ﷺ: «إننا لم نجى لقتال أحد، ولكن جئنا معتمرين، وإن قريشاً قد نهكتهم الحرب فأصرت بهم، فإن شاءوا ماددتهم مدة ويخلوا بيني وبين الناس، فإن أظهر فإن شاءوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا وإلا فقد حموا، وإن هم أبوا فالذي نفسي بيده لأقاتلنهم على أمري هذا حتى تنفرد سالفتي أو لينفذن الله أمره» قال بديل: سأبلغهم ما تقول، فانطلق حتى أتى قريشاً فقال: إنا قد جئنا من عند هذا الرجل وسمعناه يقول قولاً، فإن شئتم أن نعرضه عليكم فعلنا، فقال سفهاؤهم: لا حاجة لنا أن نخبرنا عنه بشيء، وقال ذوو الرأي منهم: هات ما سمعته يقول، قال: سمعته يقول كذا وكذا، فحدثهم بما قال رسول الله ﷺ، فقام عروة بن مسعود فقال: أي قوم، أستمم بالوالد؟ قالوا: بلى، قال: وألست بالولد؟

(١) هذا جزء من حديث طويل أخرجه الإمام أحمد وعبد الرزاق، وقد اقتصرنا على هذا القدر لتذكر رواية البخاري رحمه الله.

قالوا بلى، قال فهل تتهمونني؟ قالوا: لا، قال: أليس تعلمون أنني استنشرت أهل عكاظ فلما بلحوا علي جنتكم بأهلي وولدي ومن أطاعني؟ قالوا: بلى، قال: فإن هذا قد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها، ودعوني آتة، قالوا: آتة، فاتاه فجعل يكلم النبي ﷺ، فقال النبي ﷺ له نحواً من قوله لبديل بن ورقاء، فقال عروة عند ذلك: أي محمد أرايت إن استأصلت قومك هل سمعت بأحد من العرب اجتاحت أصله قبلك؟ وإن تك الأخرى فإنني والله لأرى وجوهاً، وإنني لأرى أشواباً من الناس خليقاً أن يفروا ويدعوك، فقال له أبو بكر رضي الله عنه: امصص بظر اللات، أنحن نفر وندعه؟ قال: من ذا؟ قالوا: أبا بكر، قال: أما والذي نفسي بيده لولا يد لك عندي لم أجرك بها لأجبتك. قال: وجعل يكلم النبي ﷺ، فكلما كلمه أخذ بلحيته ﷺ والمغيرة بن شعبه رضي الله عنه قائم على رأس النبي ﷺ ومعه السيف وعليه المغفر، وكلما أهوى عروة بيده إلى لحية النبي ﷺ ضرب يده بنعل السيف، وقال: آخر يدك عن لحية رسول الله ﷺ. فرفع عروة رأسه، وقال: من هذا؟ قال: المغيرة بن شعبه، قال: أي غدر، أليس أسمى في غدرك؟ - وكان المغيرة بن شعبه رضي الله عنه صحب قوماً في الجاهلية فقتلهم وأخذ أموالهم، ثم جاء فأسلم - فقال النبي ﷺ: «أما الإسلام فأقبل، وأما المال فلست منه في شيء»، ثم إن عروة جعل يرمق أصحاب النبي ﷺ بعينه، قال: فوالله ما تنتخم رسول الله ﷺ نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم، فذلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضعوا كادوا يقتلون على وضوئه وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده، وما يُحدون النظر إليه تعظيماً له ﷺ؛ فرجع عروة إلى أصحابه، فقال: أي قوم والله لقد وفدت على الملوك، ووفدت على كسرى وقيصر والنجاشي، والله ما رأيت ملكاً قط يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد محمداً، والله إن تنخم نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم، فذلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضعوا كادوا يقتلون على وضوئه، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده، وما يحدون النظر إليه تعظيماً له، وإنه قد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها، فقال رجل منهم من بني كنانة: دعوني آتة، فقالوا: آتة، فلما أشرف على النبي ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم، قال النبي ﷺ: «هذا فلان وهو من قوم يعظمون البدن فابعثوها له»، فبعثت له، واستقبله الناس يلبون، فلما رأى ذلك قال: سبحان الله ما ينبغي لهؤلاء أن يصدوا عن البيت، فلما رجع إلى أصحابه، قال: رأيت البدن قد قلدت وأشعرت، فما أرى أن يصدوا عن البيت، فقام رجل منهم يقال له مكرز بن حفص، فقال: دعوني آتة، فقالوا: آتة، فلما أشرف عليهم قال النبي ﷺ: «هذا مكرز وهو رجل فاجر» فجعل يكلم النبي ﷺ، فبينما هو يكلم إذ جاء سهيل بن عمرو، وقال معمر: أخبرني أيوب عن عكرمة أنه قال: لما جاء سهيل بن عمرو قال النبي ﷺ: «قد سهل لكم من أمركم». قال معمر: قال الزهري في حديثه: فجاء سهيل بن عمرو فقال: هات اكتب بيننا وبينك كتاباً، فدعا النبي ﷺ بعلي رضي الله عنه، وقال: «اكتب بسم الله الرحمن الرحيم»، فقال سهيل بن عمرو: أما الرحمن فوالله ما أدري ما هو، ولكن اكتب: باسمك اللهم كما كنت تكتب، فقال المسلمون: والله لا نكتبها إلا بسم الله الرحمن الرحيم، فقال النبي ﷺ: «اكتب باسمك اللهم» ثم قال: «هذا ما قضى عليه محمد رسول الله»، فقال سهيل: والله لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك، ولكن اكتب: محمد بن عبد الله، فقال النبي ﷺ: «والله إنني لرسول الله وإن كذبتوني، اكتب: محمد بن عبد الله». قال الزهري: وذلك لقوله: «والله لا يسألوني خطة يعظمون فيها حرمت الله تعالى إلا أعطيتهم إياها». فقال له النبي ﷺ: «على أن تخلوا بيننا وبين البيت فنظف به»، فقال سهيل: والله لا تتحدث العرب أنا أخذنا ضغطة، ولكن ذلك من العام المقبل، فكتب، فقال سهيل: وعلى أن لا يأتيك منا رجل وإن كان على دينك إلا رددته إلينا، فقال المسلمون: سبحان الله كيف يرد إلى المشركين وقد جاء مسلماً؟ فبينما هم كذلك إذ جاء (أبو جندل) بن سهيل بن عمرو يرسف في قيوده، قد خرج من أسفل مكة حتى رمى بنفسه بين أظهر المسلمين، فقال سهيل: هذا يا محمد أول من أقاضيك عليه أن ترده إلي، فقال النبي ﷺ: «إنا لم نقض الكتاب بعد»، قال: فوالله إذا لأصلحك

على شيء أبداً، فقال النبي ﷺ: «فأجزه لي»، قال: ما أنا بمجيز ذلك لك، قال: «بلى فافعل»، قال: ما أنا بفاعل، قال مكرز: بلى قد أجزناه لك، قال أبو جندل: أي معشر المسلمين أرد إلى المشركين وقد جئت مسلماً، ألا ترون ما قد لقيت؟ وكان قد عذب عذاباً شديداً في الله عز وجل، قال عمر رضي الله عنه: فأتيت نبي الله ﷺ فقلت: ألسنت نبي الله حقاً؟ قال ﷺ: «بلى»، قلت: ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟ قال ﷺ: «بلى»، قلت: فلم نعطي الدنيا في ديننا إذا؟ قال ﷺ: «إني رسول الله ولست أعصيه وهو ناصري»، قلت: أولست كنت تحدثنا أنا سنأتي البيت ونطوف به؟ قال ﷺ: «بلى أفأخبرتك أنا تأتيه العام؟»، قلت: لا، قال ﷺ: «فإنك آتية ومطوف به» قال: فأتيت أبا بكر، فقلت: يا أبا بكر! أليس هذا نبي الله حقاً؟ قال: بلى، قلت: ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟ قال: بلى، قلت: فلم نعطي الدنيا في ديننا إذا؟ قال: أيها الرجل إنه رسول الله وليس يعصي ربه وهو ناصره، فاستمسك بفرزه، فوالله إنه على الحق، قلت: أوليس كان يحدثنا أنا سنأتي البيت ونطوف به؟ قال: بلى، قال: أفأخبرك أنك تأتيه العام؟ قلت: لا، قال: فإنك تأتيه وتطوف به. قال الزهري: قال عمر رضي الله عنه: فعملت لذلك أعمالاً، قال: فلما فرغ من قضية الكتاب قال رسول الله ﷺ لأصحابه: «قوموا فانحروا ثم احلقوا»، قال: فوالله ما قام منهم رجل، حتى قال رسول الله ﷺ ذلك ثلاث مرات، فلما لم يقم منهم أحد دخل ﷺ على أم سلمة رضي الله عنها، فذكر لها ما لقي من الناس، قالت له أم سلمة رضي الله عنها: يا نبي الله أتحب ذلك؟ أخرج ثم لا تكلم أحداً منهم كلمة، حتى تنحر بدنك وتدعو حالقك فيحلقك، فخرج رسول الله ﷺ فلم يكلم أحداً منهم حتى فعل ذلك، نحر بدنه ودعا حالقه فحلقه. فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا وجعل بعضهم يحلق بعضاً حتى كاد بعضهم يقتل بعضاً غمًا، ثم جاءه نوسة مؤمنات فأنزل الله عز وجل: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فحتى يبلغن: ﴿بعصم الكوافر﴾ فطلق عمر رضي الله عنه يومئذ امرأتين كانتا له في الشرك، فتزوج إحداهما معاوية بن أبي سفيان، والأخرى صفوان بن أمية، ثم رجع النبي ﷺ إلى المدينة، فجاءه (أبو بصير) رجل من قريش وهو مسلم، فأرسلوا في طلبه رجلين، فقالوا: العهد الذي جعلت لنا، فدفعه إلى الرجلين، فخرجا به، حتى إذا بلغا ذا الحليفة فنزلوا يأكلون من تمر لهم، فقال أبو بصير لأحد الرجلين: والله إنني لأرى سيفك هذا يا فلان جيداً، فاستله الآخر، فقال: أجل، والله إنه لجيد، لقد جربت منه، ثم جربت فقال أبو بصير: أرني أنظر إليه، فأمكنه منه، فضربه حتى برد، وفر الآخر، حتى أتى المدينة فدخل المسجد يعدو، فقال رسول الله ﷺ حين رآه: «لقد رأى هذا ذعراً»، فلما انتهى إلى النبي ﷺ قال: قتل والله صاحبي، وإنني لمقتول، فجاء أبو بصير، فقال: يا رسول الله قد والله أوفى الله ذمتك قد رددتني إليهم، ثم نجاني الله تعالى منهم، فقال النبي ﷺ: «ويل أمه مسعر حرب لو كان معه أحد»، فلما سمع ذلك عرف أنه سيرده إليهم، فخرج حتى أتى سيف البحر، قال: وتفلت منهم أبو جندل بن سهيل، فلحق بأبي بصير، فجعل لا يخرج من قريش رجل قد أسلم إلا لحق بأبي بصير، حتى اجتمعت منهم عصابة، فوالله ما يسمعون بعير خرجت لقريش إلى الشام، إلا اعترضوا لها فقتلوهم، وأخذوا أموالهم، فأرسلت قريش إلى النبي ﷺ تناشده الله والرحم، لما أرسل إليهم فمن أتاه منهم فهو آمن، فأرسل النبي ﷺ إليهم، وأنزل الله عز وجل: ﴿وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة﴾ حتى بلغ: ﴿حمية الجاهلية﴾ وكانت حميتهم أنهم لم يقرؤا أنه رسول الله ولم يقرؤا بسم الله الرحمن الرحيم، وحالوا بينهم وبين البيت^(١).

وقال الإمام أحمد، عن أنس رضي الله عنه قال: إن قريشاً صالحوا النبي ﷺ وفيهم (سهيل بن عمرو) فقال النبي ﷺ لعلي رضي الله عنه: «اكتب بسم الله الرحمن الرحيم»، فقال سهيل: لا ندري ما بسم الله الرحمن الرحيم، ولكن اكتب: باسمك اللهم، فقال ﷺ: «اكتب من محمد رسول الله»، قال: لو نعلم أنك

(١) أخرجه البخاري في صحيحه.

رسول الله لأتبعنك، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك، فقال النبي ﷺ: «اكتب من محمد بن عبد الله»، واشترطوا عليه ﷺ، أن من جاء منكم لا نرده عليكم، ومن جاءكم منا رددتموه علينا، فقال: يا رسول الله أنكتب هذا؟ قال ﷺ: «نعم إنه من ذهب منا إليهم فأبعده الله»^(١). وروى الإمام أحمد، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: نحر رسول الله ﷺ يوم الحديبية سبعين بدنة، فيها جمل لأبي جهل، فلما صدت عن البيت حنت كما تحن إلى أولادها^(٢).

﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ مَائِمِينَ مَلْفَيْنِ رُءُوسَكُمْ وَمَقَصِّينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتَمَا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾﴾.

كان رسول الله ﷺ قد رأى في المنام أنه دخل مكة وطاف بالبيت، فأخبر أصحابه بذلك وهو بالمدينة، فلما ساروا عام الحديبية لم يشك جماعة منهم أن هذه الرؤيا تنفسر هذا العام، فلما وقع ما وقع من قضية الصلح ورجعوا عامهم ذلك على أن يعودوا من قابل، وقع في نفس بعض الصحابة رضي الله عنهم من ذلك شيء، حتى سأل عمر بن الخطاب رضي الله عنه في ذلك فقال له فيما قال: أفلم تكن تخبرنا أنا سنأتي البيت ونطوف به؟ قال: «بلى، أفأخبرت أنك تأتيه عامك هذا؟» قال: لا، قال النبي ﷺ: «فإنك آتبه ومطوف به»، وبهذا أجاب الصديق رضي الله عنه أيضاً، ولهذا قال تبارك وتعالى: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ هذا لتحقيق الخبر وتوكيده، وليس هذا من الاستثناء في شيء، وقوله عز وجل: ﴿آمِنِينَ﴾ أي في حال دخولكم، وقوله: ﴿محلقيين رؤوسكم ومقصرين﴾ حال مقدرة، لأنهم في حال دخولهم لم يكونوا محلقيين ومقصرين، وإنما كان هذا في ثاني الحال، كان منهم من حلق رأسه ومنهم من قصره.

وثبت في «الصحيحين» أن رسول الله ﷺ قال: «رحم الله المحلقيين»، قالوا: والمقصرين يا رسول الله؟ قال ﷺ: «رحم الله المحلقيين»، قالوا: والمقصرين يا رسول الله؟ قال ﷺ: «والمقصرين» في الثالثة أو الرابعة، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿لا تخافون﴾ حال مؤكدة في المعنى، فأثبت لهم الأمن حال الدخول، ونفى عنهم الخوف حال استقرارهم في البلد، لا يخافون من أحد، وهذا كان في عمرة القضاء في ذي القعدة سنة سبع، فإن النبي ﷺ لما رجع من الحديبية في ذي القعدة رجع إلى المدينة فأقام بها ذا الحجة والمحرم، وخرج في صفر إلى خيبر، ففتحها الله عليه بعضها عنوة، وبعضها صلحاً، وقسمها بين (أهل الحديبية) وحدهم ولم يشهدا أحد غيرهم إلا الذين قدموا من الحبشة (جعفر بن أبي طالب) وأصحابه (وأبو موسى الأشعري) وأصحابه رضي الله عنهم ولم يغيب منهم أحد، ثم رجع إلى المدينة، فلما كان في ذي القعدة من سنة سبع خرج النبي ﷺ إلى مكة معتمراً، هو وأهل الحديبية، فأحرم من ذي الحليفة، وساق معه الهدى، قيل: كان ستين بدنة، فلبى وصار أصحابه يلبون، فلما كان ﷺ قريباً من مر الظهران بعث (محمد بن سلمة) بالخيال والسلاح أمامه، فلما رآه المشركون رعبوا رعباً شديداً، وظنوا أن رسول الله ﷺ يغزوهم وأنه قد نكث العهد الذي بينهم وبينه من وضع القتال عشر سنين، فذهبوا، فأخبروا أهل مكة، فلما كان في أثناء الطريق بعثت قريش (مكرز بن حفص) فقال: يا محمد ما عرفناك تنقض العهد، فقال ﷺ: «وما ذاك؟» قال: دخلت علينا بالسلاح والقسى والرماح، فقال ﷺ: «لم يكن ذلك وقد بعثنا به إلى يأجج»، فقال: بهذا عرفناك بالبر

(١) أخرجه أحمد ورواه مسلم في صحيحه.

(٢) أخرجه الإمام أحمد.

والوفاء، وخرجت رؤوس الكفار من مكة لثلاثا ينظروا إلى رسول الله ﷺ، وإلى أصحابه رضي الله عنهم غيظاً وحنقاً، وأما بقية أهل مكة من الرجال والنساء والولدان، فجلسوا في الطرق وعلى البيوت ينظرون إلى رسول الله ﷺ وأصحابه، فدخلها عليه الصلاة والسلام، وبين يديه أصحابه يلبون، والهدي قد بعثه إلى ذي طوى وهو راكب (ناقته القصواء) التي كان راكبها يوم الحديبية، وعبد الله بن رواحة الأنصاري أخذ بزمام ناقه رسول الله ﷺ يقودها وهو يقول:

خلوا بني الكفار عن سبيله
يا رب إنني مؤمن بقبيله
نحن قتلناكم على تأويله
ضرباً يزيل الهام عن مقيله
إني شهيد أنه رسوله
كما قتلناكم على تنزيله
ويذهل الخليل عن خليله

روى الإمام أحمد، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قدم رسول الله ﷺ وأصحابه مكة، وقد هتتهم حمى يثرب ولقوا منها سوءاً، فقال المشركون: إنه يقدم عليكم قوم قد هتتهم حمى يثرب ولقوا منها شراً، وجلس المشركون من الناحية التي تلي الحجر فأطلع الله تعالى نبيه ﷺ على ما قالوا، فأمر رسول الله ﷺ أصحابه أن لا يرملوا الأشواط الثلاثة ليرى المشركون جلدهم، قال: فرملوا ثلاثة أشواط، وأمرهم أن يمشوا بين الركبتين حيث لا يراهم المشركون، ولم يمنع النبي ﷺ أن يرملوا الأشواط كلها إلا إبقاء عليهم، فقال المشركون: أهؤلاء الذين زعمتم أن الحمى قد هتتهم؟ هؤلاء أجلد من كذا وكذا^(١)، قال ابن عباس رضي الله عنهما: إنما سعى النبي ﷺ بالبيت وبالصفا والمروة ليرى المشركون قوته، وروى البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: إن رسول الله ﷺ خرج معتمراً، فحال كفار قريش بينه وبين البيت، فنحر هديه وحلق رأسه بالحديبية، وقاضاهم على أن يعتمر العام المقبل، ولا يحمل سلاحاً عليهم إلا سيوفاً ولا يقيم بها إلا ما أحبوا، فاعتمر ﷺ من العام المقبل، فدخلها، كما كان صالحهم، فلما أن أقام بها ثلاثاً، أمره أن يخرج فخرج ﷺ^(٢)، وقوله تعالى: ﴿فعلّم ما لم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحاً قريباً﴾ أي فعلم الله عز وجل من الخيرة والمصلحة في صرفكم عن مكة ودخولكم إليها عامكم ذلك ما لم تعلموا أنتم ﴿فجعل من دون ذلك﴾ أي قبل دخولكم الذي وعدتم به في رؤيا النبي ﷺ فتحاً قريباً، وهو الصلح الذي كان بينكم وبين أعدائكم من المشركين.

ثم قال تبارك وتعالى مبشراً للمؤمنين بنصرة الرسول ﷺ على عدوه وعلى سائر أهل الأرض: ﴿هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق﴾ أي بالعلم النافع والعمل الصالح، فإن الشريعة تشتمل على شيئين: علم، وعمل ﴿ليظهره على الدين كله﴾ أي على أهل جميع الأديان من سائر أهل الأرض، من عرب وعجم، ومليين ومشركين ﴿وكفى بالله شهيداً﴾ أي أنه رسوله وهو ناصره، والله سبحانه وتعالى أعلم.

﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّامًا يَتَّخِذُونَ فَضلاً مِنْ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ الشُّجُورِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَرِزِقٍ أُخْرِجَ مِنْهُمُ سَطَنَةٌ فَيَقْذَرُوهُ فَأَنْتَ تَقْبَلُهُمْ عَلَى سَوْفَةٍ يَجْعَبُ الزَّرَّاعُ لِيُحِيطَ بِهِمْ الْكُفَّارُ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ ﴿١١﴾

يخبر تعالى عن محمد ﷺ أنه رسوله حقاً بلا شك ولا ريب فقال: ﴿محمد رسول الله﴾ وهو مشتمل على كل وصف جميل، ثم ثنى بالثناء على أصحابه رضي الله عنهم فقال: ﴿والذين معه أشداء على الكفار

(١) أخرجه أحمد والشيخان.

(٢) رواه البخاري ومسلم.

رحماء بينهم»، كما قال عز وجل: «أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين» وهذه صفة المؤمنين، أن يكون أحدهم شديداً على الكفار، رحيماً بالأخيار، عبوساً في وجه الكافر، بشوشاً في وجه المؤمن، كما قال تعالى: «وليجدوا فيكم غلظة»، وقال النبي ﷺ: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمل والسهر»^(١). وفي الصحيح: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً»، وشبك بين أصابعه.

وقوله سبحانه وتعالى: «تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً» وصفهم بكثرة الصلاة، وهي خير الأعمال، ووصفهم بالإخلاص فيها لله عز وجل، والاحتساب عند الله تعالى جزيل الثواب، وهو (الجنة) المشتملة على فضل الله عز وجل، ورضاه تعالى عنهم وهو أكبر من الأول، كما قال جل وعلا: «ورضوان من الله أكبر» وقوله جل جلاله: «سماهم في وجوههم من أثر السجود» قال ابن عباس: يعني السميت الحسن، وقال مجاهد: يعني الخشوع والتواضع، وقال السدي: الصلاة تحسن وجوههم، وقال بعض السلف: من كثرت صلواته بالليل حسن وجهه بالنهار^(٢). وقال بعضهم: إن للحسنة نوراً. في القلب، وضياء في الوجه، وسعة في الرزق، ومحبة في قلوب الناس. وقال عثمان رضي الله عنه: «ما أسر أحد سريرة إلا أبداها الله تعالى على صفحات وجهه وفلتات لسانه» والغرض أن الشيء الكامن في النفس يظهر على صفحات الوجه، فالمؤمن إذا كانت سريرته صحيحة مع الله تعالى، أصلح الله عز وجل ظاهره للناس، كما روي عن عمر رضي الله عنه أنه قال: «من أصلح سريرته أصلح الله تعالى علانيته»، وقال النبي ﷺ: «ما أسر أحد سريرة إلا ألبسه الله تعالى رداءها إن خيراً فخير وإن شراً فشر»^(٣). وفي الحديث: «إن الهدي الصالح، والسمت الصالح، والاقتصاد جزء من خمسة وعشرين جزءاً من النبوة»^(٤)، فالصحابه رضي الله عنهم خلصت نياتهم وحسنت أعمالهم، فكل من نظر إليهم أعجبه في سمتهم وهديتهم، وقال مالك رضي الله عنه: بلغني أن النصراني كانوا إذا رأوا الصحابة رضي الله عنهم الذين فتحوا الشام يقولون: والله لهؤلاء خير من الحواريين فيما بلغنا، وصدقوا في ذلك، فإن هذه الأمة معظمة في الكتب المتقدمة، وأعظمها وأفضلها أصحاب رسول الله ﷺ، وقد نوه الله تبارك وتعالى بذكرهم، في الكتب المنزلة والأخبار المتداولة، ولهذا قال سبحانه وتعالى ههنا: «ذلك مثلهم في التوراة»، ثم قال: «ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه» أي فراخه «فأزره» أي شدّه «فاستغلظ» أي شب وطال «فاستوى على سوقه يعجب الزراع» أي فكذا أصحاب رسول الله ﷺ، آزره وأيدوه ونصروه، فهم معه كالشطء مع الزرع «ليغيظ بهم الكفار»، ومن هذه الآية انتزع الإمام مالك رحمه الله بتكفير الروافض الذين يبغضون الصحابة رضي الله عنهم، قال: لأنهم يبغضونهم، ومن غاظ الصحابة فهو كافر لهذه الآية، ووافق طائفة من العلماء رضي الله عنهم على ذلك.

والأحاديث في فضل الصحابة رضي الله عنهم، والنهي عن التعرض لهم بمساويهم كثيرة، ويكفيهم ثناء الله عليهم، ورضاه عنهم، ثم قال تبارك وتعالى: «وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم» من هذه لبيان الجنس «مغفرة» أي لذنوبهم «وأجرأ عظيماً» أي ثواباً جزيلاً، ورزقاً كريماً، ووعد الله حق وصدق، لا يخلف ولا يبذل، وكل من اقتفى أثر الصحابة رضي الله عنهم فهو في حكمهم، ولهم الفضل

(١) أخرجه الشيخان عن النعمان بن بشير.

(٢) أسنده ابن ماجة في سننه والصحيح أنه موقوف.

(٣) أخرجه الطبراني عن جندب بن سفيان البجلي.

(٤) أخرجه أحمد وأبو داود عن ابن عباس.

والسبق والكمال، الذي لا يلحقهم فيه أحد من هذه الأمة، رضي الله عنهم وأرضاهم، وجعل جنات الفردوس مأواهم. روى مسلم في «صحيحه» عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تسبوا أصحابي، فوالذي نفسي بيده، لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً، ما أدرك مذبذبهم ولا نصيفه»^(١).

[آخر تفسير سورة الفتح، والله الحمد والمنة]

(١) أخرجه مسلم في صحيحه.